بين التجريد والسريالية

بقلم علي الشعلان

كان من نتائج سرعة تطور فن التصوير الحديث ، ونشوء مدارس فنية مختلفة وانقراضها في فترة ضيقة من الزمان، وهي فترة ما كادت تتبلور فيها القيم المبشر بها، حتى تحجرت واخذت طريقها نحو الانقراض ، ان اخذ بعض الناس يخلطون بين هذه المدارس المختلفة دونما دراية او علم ، وراحوا ينعتون كل صورة لا يفهمونها بانها رمزية او سريالية . ومرد هذا الخلط كله راجع الى تقدم الفنان على عصره وتحجر القيم التي يتخذها الجمهور اساساً لمقاييسه وهي مقاييس خلفتها عقلية قديمة لا يواكبها عمل عقلية اليوم المتجددة الطموحة . هذا سبب عام واما بالنسبة للشرق العربي فيرجع عدم التفاهم بين الفنان والجمهور الى انعدام الاروقة الدائمة Gallarys التي تضم لوحات فنية تمثل مدارس مختلفة ، ثم قلة المعارض الفردية والجماعية ثم انعدام الصحف والمجلات التي تعنى بشؤون الفن وخصوصاً الفن التشكيلي Plastique كالرسم والنحت و (العمارة) وهي التي تعمل على تقريب وجهات النظر المختلفة . ان وجود هذه الاسباب مجتمعة وظهور تجار النقد الذين يلوكون الكلمات والمصطلحات الفنية المختلفة دونما فهم او تحقيق هي التي سببت تشويه الحقائق فنتج من ذلك الخلط بين القيم المختلفة وبالتالي انعدام التفاهم بين الفنان والجمهور !!

غوغان – بريشة سكافكر

تعد السنوات الواقعة بين ١٩٠٧–١٩١٢ مهمة[١] وخطيرة جداً في تاريخ الفن الحديث حيث اخذت فكرة الفن التجريدي التي غرست بذورها الاولى في العقد الاخير من القرن المنصرم تنتظم وتتبلور في اتجاهات عدة .

التجريد في اللغة معناه التعرية وازالة الزوائد والتزويقات اللاضرورية وهو بالنسبة للفن يعني الانطلاق اللامحدود والتخلص من القيود الطبيعية مكانية كانت او زمانية[٢] والتجريد ليس من المبتدعات الحديثة ولكنه مظهر العصر ومدلول ثورته على القيم التقليدية والكلاسيكية (المدرسية) .

لو تأملنا في حقيقة التجريد ودرسناه من الناحية التاريخية لوجدنا ان جذوره تمتد من ناحية الفكرة (Idea) حتى عصر رامبراندت Rembrandt بل حتى عصر النهضة Renaissance . فالتجريد يشمل مفهومين : التجريد في الفكرة والتجريد في الاسلوب وقد يشمل المفهومين معاً وذلك مظهره المتبلور في العصر الحاضر .

قلت ان التجريد ليس من مبتدعات العصر ولكنه مظهر للعصر ، وهذا صحيح لان كبار الفنانين الكلاسيكيين قد عمدوا الى التجريد[٣] في اواخر حياتهم الفنية فلو اخذنا فكرة لرامبراندت رسمها في دورين من ادوار حياته الفنية ولتكن (عودة الابن الضال) لوجدنا ان اللوحة التي رسمها في آخر حياته تختلف تماماً عن التي رسمها في مستهل حياته . فاللوحة الاخيرة لا تمثل غير خروج الاهل وذوي القربى والجيرة الذين يطلون من السطوح لاستقبال ابنهم الضال العائد، وهم في جذل واستبشار . اما التي رسمها في آخر حياته الفنية فهي اكثر جزالة في الغرض وأشد تعمقاً في الفكرة . لان الموضوع (عودة الابن الضال) في حقيقته يخص شخصين اثنين : الاب والابن . فالاب وهو شيخ وخطه الشيب يشخص في وضع دراماتيكي حزين وقد تجلت معالم العفو والمغفرة في عينيه الباكيتين وشفتيه المتهدلتين العاتبتين، وقد بدا وهو واضع يده المغضنة على كتف ابنه . والابن الضال جاثم امامه على ركبتيه في خضوع وتذلل وندم . ان هذه الصورة قد تجردت من

(٣) Modern french Painters : R.H Wilenski; p 200

(٢) THe meaning of art : Herbert Read; p 146

(٣) مجلة الكاتب المصري : الاثر الاخير لزعماء الفن Hilde Zaloscer

الحواشي والزوائد واقتصرت على الاب وابنه الضال فهي من ناحية فكرتها صورة تجريدية .

اما التجريدية في مفهومهـــا الحديث فهي الانطلاق اللامحدود في الفكرة والاســـلوب والموضوع . وقد اثر في التجريدية الحديثة عامـــلان مهمان : الاول هو تعليم بول ســـيزان [١] (Paul Cezanne) والعامـل الثاني بعث الزخرفة العربية [٢] . قلت ان التجريدية في مفهومها الحديث خلاصة القيم (Value) التي نادى بها بول سيزان الذي تبنى تعـــاليم مانيه (Manet) في التسطيح [٣] والذي استهدف الهدم والبناء معالجـــاً بذلك فكرة الفراغ [٤] . والمتأمل لصوره يرى قسوة الحد الذي تتركه ضربة فرشاته عـلى سطح قمـــاش التصوير . ويقول النـاقد (هربرت ريد) [٥] في هـــذا المجـــال : ان الأشكال لدى سيزان تبدو وكأنها منشـــأة من الكارتون (المقوّى) والملاحظ ان صور سيزان تسبح في جو تجريدي مطلق في عالم لا تضيئه الشمس ولا زمن فيه [٦] .

هـــدم سيزان المنظـور (Perspective) وضرب صفحـاً عن القيم الكلاسيكية كالتزام الشبه ، وجرد الأشخاص من دمائهم وحسيتهم وعرضهم صخوراً تشخص في جو سرمدي مطلق ! كما انه تحلل من القيود الموضوعية وبنى الموضوع بشكل ارتآه صخيحاً . كأن يأخذ عموداً او شجرة او كوخاً من مسارح النظر التي امامه ويضعها على سطح القماش التصويري بشكل يراه اكثر تناسباً مما هو في الواقع . وكان منطقه في هـذا : الخلق والابداع ، لا التقليد ونقل الواقع الموضوعي . فنتج من ذلك التشويه المنظم الذي يعتبر احد الأسس التي قامت عليهـا التجريدية الحديثة Abstract .

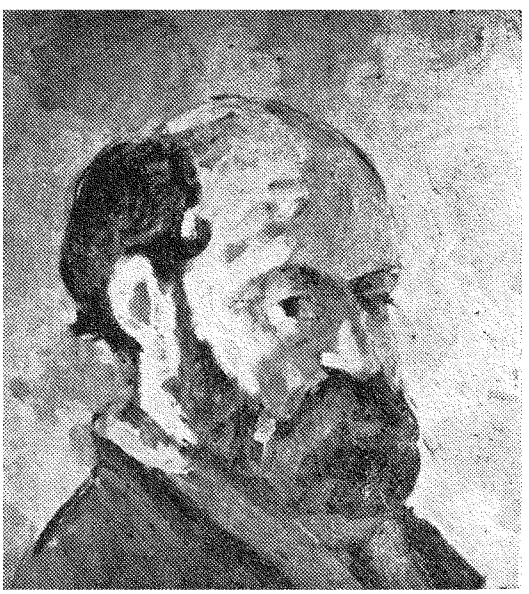

بول سيزان – بريشته

اما تأثير الزخرفة العربيـــة (Rhythmic Arabesque) وفنون الشرق الأقصى Far eastern art فقـد ادت الى خلق جماعة الزخرفة الايقاعية (Rhythmic Decoration) [١] التي استهدفت إيجاد هندسة تصويرية تستقي أساسها من الخط الزخرفي المنساب والمساحات اللونيـة الكبيرة وكانت تسيطر على هذه الحركة نفس الفكرة الفنية (Aesthetic) التي سيطرت على فنون الشرق البعيد . وكان اول اقطاب هذه الحركة هو بول غوغان (Paul Gauguin) (١٨٨٨ – ١٨٩٠) واما رائدها الأول في العصر الحاضر فهو ماتيس (Matisse) الذي تمكن من تمثيل الأبعاد الثلاثة بشكل زخرفي على سطح ذي بعدين .

في الوقت الذي كانت فيـــه تعـاليم « بول ســـيزان » تأخذ طريقهـــا الى التبلور والنضج كانت نظريات (فرويـــد – Freud) الطبيب النمساوي التي شاعت في العـلوم النفسية عن اللاوعي والعقل الباطن قـد أثرت تأثيراً واضحاً في الفنون المختلفة . ولم يقتصر هذا التأثير الذي يعد طابع العصر – الطابع السايكولوجي – على الأدب والشعر بل تعداهما الى الفنون التشكيلية (Plastique) كالرسم والنحت .

وهذه المنطقة التي اصطلح علماء البحوث النفسية على تسميتها باللاشعور ، والتي تبرز بين الحلم واليقظة وتطفو على شكل تيارات مبهمة غير منتظمة – لأنها ليست خاضعـــة للارادة الواعية – عمد اليها بعض الفنانين الحاذقين الذين تبنوا هـــذه

(١) بول سيزان (١٨٣٩ – ١٩٠٦) رسام فرنسي نشأ في بداية حياته انطباعي النزعة Impressionnism ثم ما لبث ان تحرر بسليقته الى اللاحقـــة للانطباعية Post impessionnism ومنه تفرعت التجريـــدية والتكعيبية Cubism ويعده النقاد ابا الفن الحديث .

(٢) Modern french painters ; R. H. Wilenski p. 200 Rhythmic Arabesque

(٣) حتى عهد مانيه Manet كانت المعركة تحتدم حول أفضلية الخط او اللون ولما جاء مانيه أعطى الأهمية للسطح التصويري .

(٤) من هنـــا نشأت التكعيبيـــة التي استهدفت معالجـــة الفراغ باتخاذ مساقط نظر من جهات مختلفة على اساس ان العين المجردة لا يمكنها إدراك الموضوع إلا في مدى الرؤية المحدودة .

(٥) The meaning of art : H. Read P. 146

(٦) الأزمة الراهنة للفن : مجلة الكاتب المصري ص ٢٥٢ Hilde Zaloscer

(١) Modern french Painters : R. H. wilenski. p 200 - 201

التعاليم وعملوا على تقصي خفايا النفس الانسانية وتعمقـــوا في البحث عن الأقاصي السحيقة فيها .

والصور السريالية (Surrealism) تسبح في جو اسطوري من غرابة الألوان والتواءات الخطوط وقد استهدف الفنان السريالي التعبير عن الوحشة الرهيبة المتغلغلة في كيان الانسان الضائع ! !

والسريالية في جذورها الأولى ترجع الى سنة ١٨٨٠ حينما ناهض [١] كوستاف مورو Gustave Moreau واوديلون ريدون Odilon Redon نظريات الواقعيين من الرسامين ولم يتأثروا بتعاليم الانطباعيين بل اخلصوا لعواطفهم واستهدفوا التعبير عن مشاعرهم وإحساساتهم فاقتربوا بذلـــك من وليم بليك (William Blake) [٢] الرسام الانكليزي الرومانتيكي المتصوف!

السريالية نزعة فردية . وكثيراً ما يشاهد تحقق الأجواء السريالية في بعض صور الرسامين الفرديين كالرسام روسّو The Douanier Rousseau في صورته (la bohemienne endormie) وفي بعض صور بول كلي (Paul Klee) .

ومن الملاحظ أن المواضيع السريالية شحيحة نادرة بالنسبة للاطراف الاخرى في الفن وذلك لان مادة الفن السريالي تقتصر على ينابيع نفوس السرياليين التي هي المصدر الوحيد لالهامهم الفني ، فهم استهدفوا الكشف عن (الحقيقـــة الداخلية) في الانسان .

والسريالية نزعة فردية لانها تقترب من التعبيرية Expressionnism والارفزية Orphism من ناحيـة التعبير المباشر عن العواطف المتدفقة والتي تكشف عن رغبات ومخاوف غامضة [١] ويقول هيلديه زالوشر Hilde Zaloscer في هـذا المجال (بانها وثيقة اعتراف اكثر مما هي عمل فني) .

ومن الملاحظ ان الصور السريالية تكشف عن عواطف رساميها الذين غالبـاً ما تطغى عليهم عاطفة دينية صوفية ومن اشهر اقطابها : شاجال الرسام اليهودي وسلفادور دالي الرسام الكاثوليكي وشريكو الايطالي الذي ثار على هذه النزعة واعلن انفصاله عنها فيما بعد وتنكر لصوره القديمة (السريالية) ببيان اصدره في باريس .

بهذا العرض الموجز لتطور فن التصوير خلال العقد الاخير من القرن المنصرم والنصف الاول من القرن الحـــاضر نخرج بان التجريدية والسرياليـــة – يسيران في طريقـــين مختلفـــين حيث ان الاولى هي تطور عضوي للفن الطبيعي والنزعة الانطباعية والثانية هي حالة عارضة صبغت الفن بصبغة العصر السايكولوجية فوجهت الانتاج الفني تحت تأثير مستلهماتها. الاولى تستلهم العواطف تحت رقابة العقل، فهي نزعـــة عقلية تجنح نحو المادة ، والثانية تخضع مفاهيمها لتأثـــير العواطف فهي صوفية تستلهم الروحيات وتفصح عـن رغبات دينية . الاولى – وهذا مهم – تهتم بالرسم كرسم في حد ذاته – اي كفن مستقل – بينما الثانيـة تخضعه للفكرة ، حيث تجعـــله من حيث المرتبة يأتي في المرحلة التالية للفكرة واخيراً ان الاولى تستهدف الخلق والابداع بينما الثانية تنفيس عن رغبات مكبوتة .

بغداد **علي الشعلان**

(١) Modern french Painters ; R. H wilenskl p : 11

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١ ، ٢٣ ، ٣١٣ :
Redon. Ensor. chirico. chgal.

١ – مجلة الكاتب المصري : الازمة الراهنة للفن . ص ٢٦٣

المعهد العـــالي

داخـــــلي – وخـــــارجي

روضة اطفال – ابتدائي – ثانوي

برج ابي حيدر – بجانب المسجد – بيروت – لبنان

- يقبل الطلاب من لبنان ومختلف الاقطار العربية
- يطبق برامج الجامعـــة الاميركية في بيروت
- اساتذة اخصائيون ، مربيات لروضة الاطفال
- بدأ التدريس في اول تشرين الاول الماضي

المخابرة : ص. ب. ١٠٨٥

ترسل البيانات لمن يطلبها مجاناً